

الزواج كنسق سياسي في المجتمعات البدوية : قبيلة طي نموذجًا

تركي علي الربيعو

تنطلق هذه الدراسة من فرضية مفادها أن الزواج في المجتمعات البدوية يظهر كنسق سياسي موجه من قبل لاوعي سياسي قبلي أو عشيري يجد في الزواج الداخلي بين أفراد العشيرة أو القبيلة إلى جانب عوامل لا عقلانية أخرى كالأصل المؤمئل والجد الأسطوري المؤسس والعنف المؤسس وسيلة للحفاظ على وحدة العشيرة أو القبيلة إزاء القوى الخارجية التي تتربص بها ووسيلة لاستمرار ديمومتها في التاريخ. وقد سبق لنا البحث في هذه العوامل وبالأخص العنف كوسيلة سياسية تهدف إلى الحفاظ على وحدة القبيلة وتمتين روابطها⁽¹⁾. ولا يفوتنا أن ننوه إلى أن أي جماعة بشرية لا توجد إلا بانغلاقها على ذاتها كما يرى ريجيس دوبريه في نقده للعقل السياسي، ولا يعقل أن يتم لها هذا إلا بالرجوع إلى أمر متعال، كممثل بطل مؤسس أو فردوس مفقود أو يوم حساب أو جمهورية شاملة جامعة، أو مجتمع بدون طبقات... إلخ⁽²⁾.

وعندما نقول إن الزواج في المجتمعات البدوية يظهر كنسق سياسي ويأخذ

(1) تركي علي الربيعو، نحو إناسة لدراسة المجتمع البدوي: قبيلة طي نموذجًا، مجلة الاجتهاد، العدد السابع عشر، السنة الرابعة، خريف 1992م/1413هـ.

(2) ريجيس دوبريه، كي لا نستسلم، ترجمة رينيه هايك وبسام حجار (بيروت، المركز الثقافي العربي، 1995)، ص 38.

طابع تظاهرة سياسية فإننا ننطلق من اعتبار أساسي أن بنية المجتمعات النسبية (التي تعتمد مبدأ النسب) هي بنية سياسية وأن نظام القرابة هو نظام سياسي وأن العلاقات السياسية بين أفراد العشيرة أو القبيلة يعبر عنها بألفاظ القرابة وأن الحياة السياسية في العشيرة والقبيلة تتجلى وعلى حد تعبير بالاندييه في الأنثربولوجيا السياسية بالتحالفات والمجابهات أو بالاتحادات والانقسامات التي تصيب الجماعات النسبية⁽¹⁾. فالزواج في المجتمعات البدوية يتم فصل بعلاقة وثيقة مع النسب ويتحدد انطلاقاً من العمق النسبي. ولمزيد من التفصيل فزواج أي شاب من أية امرأة في العشيرة يتوقف على قربها منه نسبياً وعلى موقعه بين إخوته بالإضافة إلى عوامل أخرى كموقعه داخل الفخذ الذي ينتمي إليه هو والمرأة والذي يتحدد انطلاقاً من العمق النسبي وكذلك خارج الفخذ وذلك انطلاقاً من مبدأ التحالفات السياسية بين الأفخاذ المشكلة للعشيرة فكثيراً ما تعبر هذه التحالفات بين أفخاذ العشيرة عن تبادل نسائي يأخذ شكل وصيغة علاقة سياسية. والملفت للنظر هو ذلك الحق السياسي الذي يمارسه الرجال على كل نساء العشيرة أو القبيلة. إذ يستطيع أي رجل من داخل الفخذ أن يمنع زواج أي فتاة من خارج الفخذ تحميه بذلك الأعراف والعادات القبيلة ويمنحه الشرعية وضعه السياسي النسبي داخل الفخذ وكذلك يستطيع أي فرد من العشيرة أن يمنع أي زواج خارجي لفتاة من العشيرة وأن يستأثر بها لنفسه وينطبق هذا على صعيد القبيلة بصورة أخف قليلاً. هذا الحق السياسي يعبر عنه بلفظ (حيار) حيث يستطيع أن يمارس الحيار كل أفراد العشيرة أو القبيلة القادرين وقد جرت حوادث مؤسفة تمّ فيها قتل كل المتطاولين على مبدأ الحيار. وفي الحالات التي يجري فيها التزاوج بين الأبعاد نسبياً يجري إرضاء أولاد عمومة الفتاة بهبات وأعطيات وكثيراً ما تأخذ هذه الهبات طابع أسلحة كأن يدفع لابن عم الفتاة مسدساً أو بندقية.

(1) جورج بالاندييه، الأنثربولوجيا السياسية، ترجمة جورج أبي صالح (بيروت، مركز الإنماء القومي، 1986)، الصفحات 51، 52، 55، 56.

قبيلة طيء: الزواج كنسق سياسي عند فخذ العساف

سبق لنا التعريف بهذه القبيلة التي تسكن السهل الرسوبي في الجزيرة العليا السورية منذ مئات السنين وترتبط مع القبائل المجاورة بمجابهات وأحلاف سياسية هي عرضة للتغيير والتبديل المستمرين. تتكون هذه القبيلة من طيء الأصلية ومجموعة من العشائر الكبيرة والصغيرة المتحالفة معها مثل عشيرة الجواله والبنّي سبعة والراشد والبوعاصي وحرب والغنامة والمعامرة والحلاجمة وبقارة طيء.

على صعيد طيء الأصلية التي تعود بنسبها إلى حاتم الطائي تتكون هذه من مجموعة من الأفخاذ هما فخذ العساف المركزي وفخذ اليسار والحريث من الطائيين الأفجاح إلى جانب أفخاذ أخرى هاجرت إلى العراق.

في دراستنا للزواج كنسق سياسي داخل قبيلة طيء وقع اختيارنا على فخذين مركزيين داخل القبيلة: الأول هو فخذ العساف وهذا الفخذ يمثل ضرباً من الارستقراطية القبلية داخل القبيلة إذ يمنحه الانتساب إلى حاتم الطائي اعتباراً داخل القبيلة وليس امتيازاً. فشيخ القبيلة أو بالأصح أمير القبيلة كان غالباً من داخل هذا الفخذ فعراقة النسب لهذا الفخذ تضيف عليه مزيداً من القداسة، القداسة التي تستمد شرعيتها من سلاسل نسب محفوظة شفاهياً وكتابياً ومن ميثولوجيا شعبية تضيفي هالةً من القداسة على حاتم الطائي وهنا يتجلى بوضوح دور الأسلاف المؤمّثلين في المجتمعات ذات الطراز العشيري إذ يؤمّن تقديس الأسلاف تقديس ميدان سياسي غير مميز بعد بوضوح وعلى حد تعبير جورج بالاندييه. فأمر القبيلة الحالي هو صلة الوصل بين العشيرة القبيلة الحالية المؤلفة من الأحياء وبين العشيرة (السلالة) المؤمّثلة حاملة القيم النهائية التي ترمز إليها كل الأسلاف بما أنها هي التي تنقل كلام الأسلاف إلى الأحياء وكلام الأحياء إلى الأسلاف وهنا يتجلى التداخل الكبير بين المقدس والسياسي داخل القبيلة. أما الفخذ الثاني فهو فخذ «الحسن الصالح» من عشيرة البوعاصي والتي قلنا عنها إنها تتحالف مع طيء. ويلعب هذا الفخذ

دوراً مركزياً وارشقراطياً على صعيد العشيرة فشيوخ العشيرة كانوا في الأغلب من داخله وتمتع رجاله بشجاعة نادرة ومقدرات حربية بواتهم مركز الصدارة داخل العشيرة وخارجها. وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على الاستثناس بالدراسات الأنثربولوجية والأنتولوجية التي طالت المجتمعات البدائية والقديمة وعلى معرفة مباشرة بهذا المجتمع القبلي عززتها روابط القرابة والصداقة وعلى جميع المستويات من أمير القبيلة الودود والدمث والذي أبدى تعاوناً وكرماً أثناء الجلسات المطولة معه إلى شيوخ القبيلة، من الرجال الكبار الذين بموتهم تموت مكتبة بكاملها تحوي أعراف وتقاليد وأشعار وبطولات وذكريات وفاء ومحبة لا تنضب والذين اعتمدنا عليهم في تقصي معلومات هامة تطال أكثر من مجال دراستنا.

في كتابه الموسوم بـ «بدو الرولة اليوم» يلفت نظرنا وليم لانكستر Lancaster إلى أن أمراء الرولة لم يتقيدوا بعدد الزوجات وعلى سبيل المثال فقد تزوج الأمير سظام اثنتي عشرة مرة (توفي 1901م) وتزوج الأمير نوري (توفي 1936) بحدود 70 مرة. ولانكستر يعتمد هنا على موزيل Musil صاحب المؤلف المعروف «أخلاق وتقاليد الرولة» وهو يسجل بنفسه أكثر من 42 حالة زواج للأمير المذكور وأن الأمير نواف تزوج أكثر من 41 امرأة⁽¹⁾. وهذا يعني أن البدو لم يتقيدوا بالزواج الإسلامي الذي يحصر الزواج بأربع زوجات. وقد قمنا بتقصي هذه الحالة بين أمراء طيء السابقين واللاحقين وتبين لنا أن الحالات التي تم فيها تجاوز الأربع زوجات نادرة؛ فقد تزوج أمير طيء محمد عبد الرحمن اثنتي عشرة مرة (توفي 1947م) واحتفظ العديد منهم بثلاث زوجات أو اثنتين لكن أمير القبيلة الحالي (الأمير محمد عبد الرزاق النايف) يحتفظ بزوجة واحدة.

بشكل عام فالزواج داخل فخذ العساف هو القاعدة ويعلل هذا من قبل أمير طيء الحالي بأن كل الطائيات أخوات لهم فلا يجوز الزواج منهن ولكن الواقع يشير إلى استثناءات هامة في هذا المجال وتدخل في إطار تحالف سياسي وقد قمنا

W. Lancaster, the wala bedouin Today, Cambridge. University press 1981, p. 132.

(1)

بإحصاء عدد الحالات التي تزوج فيها العساف من العشائر المتحالفة مع طيء فوجدناها تتجاوز الـ 15 حالة. لكنها تركزت في معظمها في عشيرة الراشد ولا يمكن أن يعزى ذلك إلا لأسباب سياسية تتعلق بالتحالفات والمجابهات فقد جنحت هذه العشيرة باستمرار إلى الخروج من عبادة طيء وتمكن زعمائها بداهتهم من الاحتفاظ بصلات وتحالفات مع القبائل المناوئة لطيء في التاريخ ودخلت هذه العشيرة (الراشد) في حروب عديدة مع معظم العشائر المكونة لطيء: الراشد وحرب، الراشد والبوعاصي، الراشد والجواله... إلخ. وهذه من شأنه أن يكسر القاعدة المتبعة عند العساف ليجعل من الزواج صيغة سياسية تهدف إلى الضم والإلحاق وتهدة الخواطر وتعزيز التحالف المهدد بالخرق حيث من الممكن والواقع أن تقف عشيرة الراشد متحالفة مع أحد القبائل المناوئة لطيء وهذا ما حدث في التاريخ القريب.

على الصعيد نفسه نجد أن عدد النساء العسافيات اللواتي تزوجن من أبناء عشائر طيء لا يذكر، في حين أن التاريخ القريب والبعيد يسجل حالات نادرة لزواجات سياسية بين طيء وشمير بهدف لجم الصراع والتناحر القبلي والغزو الذي لم يخمد أوزاره حتى منتصف قرننا الحالي. فقد تزوج أمير شمر صفوح الجرباء من عمشة العبدالله الحسين إحدى الأميرات الطائيات في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأنجبت منه بعد مقتله على يد العثمانيين مجموعة من الرجال الشجعان كما تصفهم الرحالة البريطانية الليدي آن بلنت في رحلتها بين «قبائل بدو الفرات» في عام 1878 والتي تصف فيها الأمير عمشة وتنعتها بالخاتون ذاكراً أنها «شخصية نسائية من النوع الوقور الجليل، ومحط تقدير وإجلال بين كل القبائل في الجزيرة الشمالية»⁽¹⁾. وقد قامت الخاتون عمشة بتزويج ابنها فارس أمير القبيلة بطائية أخرى. والخاتون عمشة الحسين هي استمرار لذلك النوع من النسوة اللاتي تتحدث عنهن دوروتيا

(1) الليدي آن بلنت، قبائل بدو الفرات 1878، ترجمة أسعد الفارس ونضال معيوف (دمشق، دار الملاح، 1991)، ص 258.

كرافولسكي، من الطائيات ذوات الجمال المتميز والسمعة التي تعلو على الشك والأصل العريق في القبيلة⁽¹⁾. وتلعب هؤلاء النسوة دوراً كبيراً في الحروب والغزوات وتقف تحث الرجال على الصبر والمنازلة وتعيرهم إذا هم انهزموا من ملاقات العدو. وقد تواتر الزواج بين طيء وشمر بنسب قليلة خضعت في الأغلب لظروف المواجهات وكان من بينها زواج أمير طائية هي درة بنت محمد عبد الرحمن أمير طيء من أمير شمري هو نوري المشل الجربا ولم يكن هو آخر زواج.

من دوروتيا كرافولسكي الباحثة والمستشرقة الألمانية التي يثير إعجابها المكانة الرفيعة للطائيات إلى فاطمة المرنيسي التي تبحث عن «السلطانات المنسيات»⁽²⁾ نجد أنفسنا مدفوعين إلى البحث عن مكانة المرأة الطائية في القبيلة، بصورة أدق وأخص عن سلطنة منسية طائية من سلطانات هذا الزمن تولت مسؤولية قيادة القبيلة في فترة حرجة ونجحت وهي الأمية من حيث فشلت متعلمات اليوم كما تتساءل المرنيسي عن تلك السلطانات المنسيات. فقد نجحت الشيخة عنود النايف (توفيت عام 1978) بالاحتفاظ بالإمارة بعد وفاة أمير طيء فارس محمد العبد الرحمن عام 1947 وكانت من الذكاء بحيث احتفظت بمجموع الرأسمال الرمزي - وعلى حد تعبير بيير بورديو - الذي كان يحتفظ به أمير القبيلة فتقلدت السيف المتوارث (سيف الأمير والد زوجها محمد عبد الرحمن) واحتفظت بالققم ودلة القهوة الكبيرة وقدر الطبخ الكبير ويسمى بالحيوان وهو من أكبر القدور النحاسية ورمز الكرم وجميع مناسف الطعام. وفور وفاة زوجها الأمير طرحت نفسها وصية على ابنها البالغ من العمر سنتين. وكانت تجلس بالمضافة مع شيوخ عشائر طيء وتحكم

(1) دوروتيا كرافولسكي، البدو في مصر والشام في القرنين السابع والثامن الهجريين عند العمري في «مسالك الأبصار»، ص 35 - 72. مجلة الاجتهاد، العدد 17، ملف البداوة والتحضر.

(2) فاطمة المرنيسي، السلطانات المنسيات، ترجمة جميل معلى وعبد الهادي عباس (دمشق، دار الحصاد، 1994).

بالمخاضات والمنازعات وتتولى فعلياً وليس رسمياً مسؤولية المواجهات والعلاقات مع المؤسسات الحكومية وكانت شخصيتها القوية طاغية على الجميع وكان يقف إلى جانبها أخوها أمير طي مما جعلها عرضة للانتقام فتعرضت لمحاولة انتقام من أبناء عمومتها وأطلق عليها النار. لكن السؤال الهام الذي نستعيه مرة أخرى من فاطمة المرنيسي كيف استطاعت هذه المرأة أن تنزعماً عالمياً قديماً ذكورياً لا يعترف بأية سلطة للنساء. وكيف استمرت في المشيخة في الوقت الذي يعجز فيه الرجال؟ وهل هي حالة منفردة أم أنها تاريخ نجاح يتوازي مع تاريخ فشل حيث حاولت نسوة عديدة غيرها من الطائيات أن يقلدن سلوكها في الوصول إلى أعلى مراتب الزعامة ولكن شتان ما بين المبدع والمقلد.

الزواج كنسق سياسي عند عشيرة البوعاصي

كما أسلفت فهذه العشيرة من العشائر المتحالفة مع طيء وتربطها سلاسل نسبها بآل البيت، بصورة أدق بالإمام محمد الباقر الحفيد الرابع للإمام علي بن أبي طالب. وتتألف هذه العشيرة من مجموعة من الأفخاذ: الحسن الصالح والسوالمه والظاهر والبراكدة والخزيم والهوالصة. ويلعب فخذ الحسن الصالح دوراً مركزياً وأرستقراطياً على صعيد العشيرة. ولهذا الاعتبار آثرنا التوجه إليه ميدانياً وقد اعتمدنا في دراستنا له على المعلومات المباشرة من الكبار ومن معظم الرجال الذين هم على صلة جيدة معه.

كما أسلفت فالمبدأ في الزواج عند البدو هو الزواج الداخلي بين أبناء العمومة ولما يزل بعد نكاح الشغار الذي حرّمه الإسلام معمولاً به بين البدو ويسمى بالبدلة كأن يزوج الشاب أخته إلى ابن عمه ويقوم ذاك بتزويج أخته إلى هذا وهو شائع بين البدو حتى وقتنا الحاضر.

في دراستنا لظاهرة الزواج عند فخذ الحسن الصالح آثر أن نتبعها عند جيلين وقد اعتمدنا هنا على الذاكرة والموروث ومعلومات الرجال الكبار دون أن نقيد بالإحصاءات الرسمية والجيل هذا مواليد ما بين 1910 - 1940 خاصة وأن القسم

الكبير منه لا يزالون على قيد الحياة. أما الجيل الثاني فقد آثرنا أن نحصره بين 1940 - 1955*. على صعيد الجيل الأول قمنا بدراسة 33 حالة زواج، 10 منها زواج أحادي وخمس منها الزواج باثنتين، وثلاث منها الزواج بثلاثة وحالة واحدة لا تزال قائمة وهي الزواج بأربع. على صعيد هام آخر لاحظنا رجحان كفة الزواج من خارج الفخذ فهناك 21 حالة زواج من خارج الفخذ بنسبة أكثر من 60٪ وقد ارتبطت هذه الفترة التي ساعدت على الزواج بمحاولة إثبات وجود سياسي إزاء العشائر الأخرى كان فيها التكاثر السياسي بين أفخاذ العشيرة على أشده أضف إلى ذلك تلك المقدرات المعنوية والنقوية لذلك النمط من الرجال الذين كانوا يقودون العشيرة. وقد لاحظنا أن هذه الفترة الزمنية لم تشهد زواج أي امرأة من فخذ الحسن الصالح إلى أي فخذ آخر من أفخاذ العشيرة باستثناء حالة نادرة جرت في مطلع القرن حيث تزوجت إحداهن إلى فخذ السوالمه.

على صعيد هذه الفترة كان المهر يتحدد بعدد الأغنام أو الإبل وبصورة نادرة لأن هذه العشيرة تعتمد على رعي الغنم ويدفع إلى والد العروس في حالة الزواج الخارجي أما في حالة الزواج الداخلي فعلى الأغلب كان السائد هو نكاح الشغار.

على صعيد الفترة الزمنية الثانية التي طالت مواليد 1940 - 1955. قمنا بدراسة 27 حالة زواج لاحظنا من بينها أن هناك 5 حالات زواج ثنائي أما الحالات البقية فقد اكتفت بواحدة. وعلى صعيد آخر سجلنا الحالات التالية؛ فمن بين 27 حالة زواج وجدنا أن 8 حالات شملت الزواج الخارجي أما الحالات البقية فقد ظلت محدّدة بمبدأ الزواج داخل الفخذ وهذا بعكس تلك الأريحية التي تمتع بها الجيل السابق. وهذا يعني بالنسبة لنا أموراً عدة.

أولاً - الميل إلى التوقع عند الجيل اللاحق⁽¹⁾.

ثانياً - انعدام أهلية الزعامة عند الجيل اللاحق وقد يفسر هذا بأسباب سياسية

* هذا الجيل سوف يدخل المدرسة.

(1) هذا التوقع يمكن رصده بسهولة عند العشائر المجاورة كعشيرة حرب وعشيرة البني سبعة فالزواج من ابنة العم أصبح هو القاعدة.

وأهمها اختراق الدولة الحديثة للمجتمع العشيري وتجييره لصالحها ونذره للانقراض على أساس تأسيس مجتمع مدني يحل محل المجتمع القبلي العشيري.

ثالثاً - رجحان تفتت العشيرة مع الزمن كنتيجة أو تحولها إلى فولكلور قومي يظهر في المناسبات القومية ولكن ذلك يترافق باحتمال انبعاث قبلي يظهر كنتيجة لازدياد الهوية بين المجتمع والدولة ونتيجة لغياب المجتمع المدني.

بقي أن أقول إنه وبالرغم من مبدأ الحيار والذي يوازي ما أسميناه بالحق السياسي الذي يمارسه الرجال على النساء والذي يمارس بصورة تعسفية أحياناً ويقود إلى حياة زوجية أقرب إلى المأساة. إلا أن هذا الحق لا يمنع المرأة من البوح علناً بمشاعر الحب تجاه من تحب حتى ولو لم يكن من أبناء العمومة حيث يعتبر الحب بشكل عام فضيلة تسعى إليها البنات مبكراً وتقول فيه أجمل الأشعار الشعبية. لا بل إن ظاهرة تعيشها فتيات العشيرة نود أن نلفت الأنظار إليها. كان فرويد يقول إن العيد هو خرق احتفالي لمحظور كما عرفه في «الطوطم والتابو» وكما يظن فإن الأعراف والعادات القبلية تختزن هذا التعريف باللاشعور. ففي العيد تخرق الفتيات المحظور وتخرج في العيد علناً لتصافح الرجال تقبيلاً أمام الأهل والعشيرة وهذا من وجهة نظرنا يفصح عن لا شعور جمعي بقي محتفظاً على صعيد الرمز بعادات قديمة قد تعود بجذورها إلى ما قبل الإسلام وأبعد من هذا بكثير.

ثمة ملاحظة أخرى أود أن أشير إليها وهي أن مبدأ الحيار الذي يحمي الحقوق السياسية للرجال يحيلنا مباشرة إلى حقيقة أنثربولوجية كشفت عنها الدراسات الحديثة وبالأخص اجتهادات ليفي ستروس من أن القبيلة هي العائلة الموسعة التي تتطلع إليها الأنظار وتظهر على مستوى حضاري ومن هنا مبدأ الحيار في حين أن العائلة النواة تكمن وظيفتها في التأكيد على الحق السياسي بين حين وآخر بالرغم من أنها أقرب إلى الطبيعة منها إلى الحضارة.

